بلاغة النص الشعري القديم

دراسة نصية في عينية الحادرة الذبياني

محمد الأمين المؤدب

إضاءات

الإضاءة الأولى

نَصْدُرُ في هذا التحليل النصي لعَيْنيّة الحادرة، عن نظرتنا للقصيدة العربية في العصر الجاهلي، بوصفها نَصّاً يتّسم بالتماسك والانسجام، لدرجة قد تصبح معها القصيدة بكاملها كلمةً، أو كالكلمة، ويَنتظم وَفْقَ نماذجَ من القول الشعري، متقاربةً أحياناً، ومتباعدةً أحياناً، ويخضع لطبيعة المجتمع الذي قيلت فيه، بما يَحْكُمُهُ من تقاليدَ وأعراف، ولثقافة الشاعر، وتجربته لحظةَ الإبداع، بما يستلزمه هذا القول، من حِذْق وقدرة على الإبداع.

كما نَصدُر فيه عن قراءة داخلية تفاعلية، تُعنى بتَتَبُّع الاستخدام اللغوي للشاعر، في هذه القصيدة أو تلك، وتحرص على التأمل في العلائق التي تَحْكُمُ عناصر ذلك الاستخدام، وتستضيء بالأشباه والنظائر، للكشف عن المؤتلف والمختلف، مستحضرةً طبيعةَ المجتمع وواقعَه الفنيَّ والتاريخي، وراصدةً كل الأدوات والخبْرات المُسْعفة في كل ذلك، بحثاً عن النسيج الجمالي للنص، ورغبةً في استصراح الوجوه البلاغية الثّاوية فيه، ورَوْماً للوقوف على خصوصيته وتميزه وربما فَرَادَتِه، وأمَلاً في اكتشاف آفاقٍ جديدة لبلاغته الرحبة، وإسهاماً في

تطوير طرائقنا الإجرائية في التعامل مع النصوص، تَعامُلاً مباشرا، بعيداً عن كل إسقاط مُمِلٍّ، أو تجريب جاهز مُخِلٍّ[1].

الإضاءة الثانية

حَظِيَ بعضُ المُقِلّين، من شعراء الجاهلية والإسلام، بعناية كبيرة، من قِبَل الرواة والنقاد، فتُنوقِلَتْ أخبارُهم، ورُويت أشعارُهم، في مصادرَ متنوعة من مصادرِ النقد والشعر، وكان كَثيرٌ من قصائدهم مَوْضِعَ اهتمام أصحاب الاختيارات، ومَحَطَّ أنظارِ الشراح ونَقَدة الشعر، قديما وحديثا. وكان من أشهر هؤلاء المُقِلّين الجاهليين، شاعرٌ كبير، ومُبْدِعٌ مُتفنِّنٌ، يُدْعى قُطْبةَ بنَ أَوْسٍ الذبيانيَّ، ويُعْرفُ بالحادِرة أو الحُوَيْدِرة[2].

الإضاءة الثالثة

والحادرة هذا، هو صاحبُ العَيْنِيَّةِ الشهيرة[3]، ذاتِ المكانة الكبيرة في شعرنا العربي القديم:

1- للوقوف على تصورنا بتفصيل، في قراءة النصوص القديمة وتحليلها، ينظر "في بلاغة النص الشعري القديم معالم وعوالم" 7 – 25.

2- عاش الحادرة في الجاهلية، وربما أدرك الإسلام ولم يُسْلم. والحادرة: الضخم، وهو لَقَبٌ غَلب عليه. وإنما لُقِّب بذلك، لأنه كان ضخم المنكبين أَرْسَحَ، ولقول زَبّان بن سَيّار الفَزَاري له يهجوه ويُشَبّهه بضفدع غليظة:

كأنك حادرةُ المنكبين رَضْعاءُ تُنْقضُ في حائر

والرّضَعُ مثل الرَّسَح، وهو خِفّة العَجيزة وصِغَرُها. وتُنْقضُ: تُصَوِّت. والحائر: الماء المجتمع. وحادرة المنكبين أي ضخمهما، وكل ضخم فهو حادر (شرح ديوان المفضليات لايل 49 – 50).

انظر ترجمته في طبقات ابن سلام (الطبقة التاسعة) 171/1، 186، والأغاني 3/270، والأعلام للزركلي 200/5، ومقدمة تحقيق الديوان 7 وما بعدها.

3- مطلع القصيدة:

بَكَرَتْ سُمَيَّةُ بُكْرَةً فتمتَّع وغَدَتْ غُدُوَّ مُفارِقٍ لم يَرْبَع

انظرها كاملةً في ملحق هذه الدراسة، برواية أبي محمد القاسم بن محمد بن بشّار، المعروف بالأنباري الكبير. وهي في ديوان المفضليات بشرحه، تحقيق لايل 48، والمفضليات، بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون 43 (القصيدة 8 فيهما) وديوان الحادرة، بتحقيق ناصر الدين الأسد 43 (وهي الثالثة فيه)، وكتاب الاختيارَيْن للأخفش، بتحقيق فخر الدين قباوة 63، ومنتهى الطلب، بتحقيق نبيل طريفي 363/6، ومختارات من الشعر الجاهلي، لأحمد راتب النفاخ 165.

وأبيات منها في طبقات ابن سلام 186/1، ونقد الشعر 28، والأغاني 79/3، والتذكرة الحمدونية 393/3.

وانظر تخريجها في هوامش المفضليات، بتحقيق شاكر وهارون 43، والديوان، بتحقيق ناصر الدين الأسد 67، وشرح اختيارات المفضل للتبريزي، بتحقيق فخر الدين قباوة 209/1.

– فهي من عيون الشعر، ومُختار القصيد[1].

– وهي من المُستجاد المُستطاب في باب الغناء والإنشاد[2].

– ثم هي بعدُ، من النماذج المتفردة، في عالم القصيد بعامة، وعالم الحادرة بخاصة. كما يستفاد من كلمة الأصمعي، ووصف أبي عبيدة، وتحلية ابن سلام[3].

وقد وَصَلتْ إلينا هذه القصيدةُ بروايات مختلفة، منها رواية أبي محمد القاسم بن محمد بن بَشّار الأنباري، المتوفى عام 305، عن أبي عِكْرِمَةَ الضَّبِّيّ، عن ابن الأعرابي، عن المفضّل الضَّبِّيّ، صاحبِ الاختيارات المعروفة بالمُفَضَّلِيّات، مع زيادات وإضافات، سمعها من رواة الشعر وأهل العلم به، كالطُّوسِيّ وغيره[4]. وقد اعتمدنا نَسَقَ هذه الرواية في التحليل، لأنها أقدمُ الروايات، وأتمُّها، وأقربُها إلى الضبط والتوثيق، كما ترى.

---

1 – يَدُلُّكَ على ذلك:

– ما روى صاحب الأغاني من أن حسان بن ثابت كان يقول – إذا قيل له: تُنُوشدت الأشعارُ في موضع كذا وكذا – : "فهل أنشدتْ كلمةُ الحُوَيْدِرة"، يعني هذه القصيدة (الأغاني 3/271). وانظر الخبر مع بعض الاختلاف في شرح ديوان المفضليات للأنباري ص 48، وديوان الحادرة ص 43.

وقول أبي عُبيدة في حقها: "هي من مختار الشعر، أصمعيّةٌ مُفَضَّلِيّةٌ" (الأغاني 3/271، والديوان 43). والقصيدة ليست في الأصمعيات المطبوعة، ولكنها من مرويات الأصمعي في الديوان43 .

وقول الأصمعي: "لو قال مثل قصيدته – يعني العينية – خَمْسَ قصائد، كان فحلا" (فحولة الشعراء 12). لكن ابن سَلام عَدّه من الفحول، فجعله في الطبقة التاسعة من شعراء الجاهلية، مادحاً قصيدته هذه بالطول، ومستشهدا ببعض أبيّاتها.

ويدلك على ذلك، ما حُكي عن أبي عُبيدة، من أن الكلمة قد تُطْلَقُ على القصيدة، كما في قولهم: "كلمة الحُوَيْدرة للعينية المعروفة بالبلاغة". تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) 3/ 147.

وقد اختارها للتحليل والقراءة عدد من الباحثين المعاصرين، أمثال:

أحمد راتب النفاخ في كتابه "مختارات من الشعر الجاهلي" 165، ومحمد النويهي في كتابه "الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه"1/149 – 296 ، وعبد الله الطيب في "المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها"، الجزء الرابع، القسم الثاني 345 – 349، ومحمد محمد أبو موسى في كتابه "قراءة في الأدب القديم" 190 – 233، وعبد الكريم محمد حسين في مقاله "التكوين الجمالي في قصيدة الحادرة الذبياني" 41 – 85 (مجلة جامعة دمشق – المجلد 27 –العدد الثالث+الرابع 2011).

2 – انظر الأصوات المُغَنّاة منها في الأغاني 3/268. وانظر ما جاء في مختصر تاريخ دمشق 5/281، من أن ابن مِسْحَج غنى أبياتا منها لعبد الملك بن مروان، فطرب عبد الملك، ورمى إليه بمُطْرَفٍ كان عليه.

3 – انظر الحاشية 2 من ص 2.

4– شرح ديوان المفضليات للأنباري، تحقيق لايَل ص 1.

بحثاً عن العلائق

تتكون هذه القصيدة – حسب رواية الأنباري المشار إليها – من 31 بيتا[1]، وتتشكل ضمن بابين من أبواب الشعر العربي القديم، هما:

1 – باب النسيب (الأبيات 1 – 8) وهو في هذا القسم، ينسُب بسُميّةَ، حين عَزَمَتْ على الرحيل، فيَصِفُ بعض مَفاتنها مما اعتاد الشعراء وصفه، وإنْ بتشكيل فني بديع، لكنه يقف وقفة خاصة مع حديثها، من خلال صورة شعرية، لعلها من أجمل الصور وأقواها في الشعر العربي القديم.

2 – باب الحماسة (الأبيات 9 – 31) وهذا الباب، كما يدل عليه عنوانه، يخصصه للتغني بالقيَم الجاهلية، فيفخر بالوفاء والنجدة والذَّوْدِ عن الحِمى، ويَذْكُرُ الخمر ومجلسها، وتجشُّمَه الأسفارَ ووَصْفَ الناقة، مُزاوِجاً بذلك بين الفخر الجماعي، والفخر الشخصي، على نحوٍ شعري خاص، كما سنرى.

ويَندرج تحت هذا الباب الأخير جملةٌ من العناصر، قد يبدو بعضُها، للقارئ المتعجّل، غريبا عن البابين المذكورين، أو بَعيدَ الصلة بهما، لكنه – في حقيقة الأمر – من صميمهما، رمزيةً ودلالة وتشكيلا. وهذه العناصر هي:

– قِيَمُ الحماسة والفخر (9 – 15)

– ذِكْرُ الخمر ومجلسها (16 – 21)

– تَجَشُّمُ الأسفار ووصفُ الناقة (22 – 31)

ونحن إذ ننظر إلى قصيدة الحادرة من هذه الزاوية، زاويةِ الأبواب أو الأغراض، فلأنّ الشاعر نفسه، كان يرمي إلى خَلْقِ نوعٍ من التّواشُج بين هذين الغرَضَين، غَرَضَي النسيب والفخر، على مستوى القِيَم المثلى، ويَسعى إلى تحقيق نوعٍ من الافتنان الخفيّ، بين معاني النسيب والفخر، على مستوى التماسك النصيّ، والانسجام الدلالي، على نحو ما عالجتُ نَصّيّاً وبتفصيل أكثر، في غير هذا الموضع[2]، ذلك أن التعلق بسُمَيّة في باب النسيب، لا

1– شرح ديوان المفضليات للأنباري، تحقيق لايَل 48 – 63. أما عدد أبياتها في المصادر الأخرى، فقلما يتجاوز 27 بيتا، وقد يتعداها ببيت أو بيتين. انظر تعليقنا على أبيات القصيدة في ملحق هذا التحليل.

2– انظر كتابنا في بلاغة النص الشعري القديم 64 – 65، و 129 وما بعدها.

يختلف عن التعلق بدار الحفاظ في باب الحماسة[1]، من حيث الصبرُ على البلاء، والتحرُّر في المواقف، ومُكابَدةُ الأهوال[2]. وبُكورُ سُميّة هناك، لا يختلف عن بكور الْفتْيَة في سياق الحديث عن الخمر ومجلسها[3]، يقول التبريزي: "نَبّهَ بهذا الكلام، على أن الفتيان الذين أشار إليهم، كانوا أكفاءً له ومعاشرين، فكانت النُّوَبُ تدور عليهم، يدلك على ذلك، أنه قال رب فتية باكرت لذتهم، ثم قال: "بَكَرُوا عليّ"، فجعل بينه وبينهم تَباكُراً وتساعُدا، ولا يمتنع أن يكون جعل نفسه المعتمَد، لأنه قال: "باكرتُ لذتهم، وهذا لا يمانع كونهم تابعين له"[4]. والتذاذُه بالخمر مع الْفتْية، شبيهٌ بالتذاذه بسُميّة، وقد آذنت بالرحيل. فكأنّ وصف الثّغْر في باب النسيب، لَفَتَه بنوع من تداعي المعاني إلى الثغر الذي ذكره في باب الفخر، وكأنّ صورةَ مُباكَرةِ اللذة مع الْفتْية، مُنتزَعةٌ من ثَغْرها المُتْرَع اللذيذ المَكْرَع[5].

والمتلقي ، وهو يتتبع أبيات النسيب، يستحضر – اتكاءً على ذَخيرته – عَلاقةَ الطَّيْف بالرحلة، في اتجاه الشاعر، بما يَقْطَعه من مَهامهَ، ويتخطاه من مراحل:

كم قد قطَعْنا دون سلمى مَهْمَهاً نازحَ الغَـــوْرِ إذا الآلُ لَمَـعْ

وعلاقةَ الشاعر بالرحلة ،في اتجاه المرأة، بما يَرْكَبه من أهوال، ويجتازه من أخطار:

طَرَقَ الكَرى بالغانيات وَرُبَّما طَرَقَ الكَـرى منهُـنَّ بالأَهوالِ
حُلُمٌ سَرى بَعْدَ المَنـام فَزارَني مِـن أُمِّ بَكـرٍ مَوْهِنـاً بِخَيـالِ
أَسرى لأَشعَثَ هاجِدٍ بِمَفازَةٍ بِخَيـالِ ناعِمَةِ السُّرى مِكْسـالِ
فَلَهَوْتُ لَيـلَةَ ناعِمٍ ذي لَذَّةٍ كَقَريـرِ عَـينٍ أَو كَناعِـمِ بـالِ

1 – يقول التبريزي، مُشيرا إلى هذا التواشج: "أعاد مناداتها، لخروجه من قصة إلى قصة، وأتى بالفاء، ليربط جملة بجملة" (شرح المفضليات 1/226).

2 – يقول التبريزي: "ودار الحفَاظ: التي لا يقيم بها إلا من حافظ على حَسَبه، وصبر على ما لا يُصْبَرُ عليه، وذلك لأنه لا يحافظ على نسبه إلا الشريف" (شرح المفضليات 1/223).
ويقول سويد بن أبي كاهل اليشكري، في سياق حديثه عن الأهوال التي يركبها الطيف، في رحلته نحو المحب. (المفضليات بتحقيق شاكر وهارون ص 192، المفضلية 40).

شاحط جاز إلى أرْحُلنـــا عُصَبَ الغاب طُروقا لم يُـــرَعْ
وكذاكَ الحُبُّ ما أشـــجعه يَركب الهَول ويَعصي مَن وَزَعْ

3– انظر البيت 16 و 19.
4 – شرح المفضليات 1/227.
5– المرشد ، الجزء الرابع، القسم الثاني 347.

هذا، وبين الطَّرْف الوَسْنان، وانهلال السحابة على البِطَاح، في باب النسيب، والمُمَهَّدين من الكَلَال، والمتَبَطِّحين على الكَنِيف، في باب الفخر وتجشُّم الأسفار، مُشاكلةٌ ومناسبةٌ وتَواشُجٌ، على مستويات:

على مستوى الواقع الجاهلي المَعيش، فالرجز "إنما تقوله العرب في حُداء الإبل ومراس الأعمال من حرب أو جَذْبِ غَرْبٍ أو سُرى ليل أو ركوبِ هاجرة؟ ... ليكون مُمْكِنةً للمُدَّة وذَريعةً إلى النشاط"[1]، والرُّكْبانُ ربما تَغَنَّوا فوق الإبل بالنسيب، يُعَلِّلون الأنفُسَ بذلك، على نحو ما قال شاعرُهم:

فقلتُ لِرِدْفي نالَكَ الخيرُ غَنِّنا بأسماءَ وارفَعْ من صدور الرَّكائب[2]

وعلى مستوى الألفاظ والمعاني، ذلك أن الشعراء قد يُداخلون نَعْتَ النسيب في نعت الإبل، ويستعملون ألفاظ الغزل في أوصاف الجد والحرب، على نحوِ ما نرى في لفظ الاسْتباء، ولفظة صَلْت، في باب النسيب (وتَصَدَّفتْ حتى استبك بواضح صَلْت)، ولفظة ثَغْر، في باب الفخر (بسَبيل ثَغْر لا يُسَرّح أهْلُه). وسَبْيُ النساء مما كان يُدخل في عُرْف الفروسية وباب الشجاعة، بل إنهم ليُكَنُّون عن المرأة بالقَلُوص، في مجال الشعر، ويربطون بينهما، في مجال اللغة[3].

وعلى مستوى القِيَم، فبَيْنَ رحلة المحبوبة هناك، ورحلة الصَّحْبِ هنا، تَناغُمٌ ومُلابسةٌ وتَداخُلٌ، من حيث الإيحاءاتُ التي يستشعرها القارئ، مستحضرا قِيَمَ الوفاء والغدر، والشُّحِّ والسخاء، في البابين معاً، ومستحضرا في الوقت نفسه ثُنائيَّةَ المماثلة والاختلاف، تَبَعاً لاختلاف المَوْقفيْن، من جهة البناء والتشكيل، وتماثلهما من جهة الدلالة والرمز. يقول التبريزي: "والمعنى: إن هذه الإبل التي وصَفْتُها، تَقْطع المَفاوز مَرْحُولةً، كلُّ واحد منها يعدو

1 الصاهل والشاحج 200.

2 الصاهل والشاحج 387 – 388.

3 يدلك على ذلك قول النهشلي في الممتع 208: "القلوص في الإبل الأنثى، مثل الجارية من الناس، والبكرة مثل الفتاة، والناقة مثل المرأة"، وقول صاحب العقد الفريد 2/264: "كتب رجل من الأنصار، كان في الغزو، إلى عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فكنى بالقلائص عن النساء:

أَلاَ أَبلِغْ أبا حَفْصٍ رسولاً فدًى لكَ من أَخي ثِقَةٍ إزَارِي
قَلائِصُنا هدَاكَ اللهُ إنّا شُغِلْنا عنكُمُ زمنَ الحَصَارِ
يُعَقِّلُهن جَعْدٌ شِيظَمِيٌّ وبِئْسَ مُعَقِّلُ الذَّوْدِ الظُّؤارُ

برجُلٍ مُنْخَرِقِ القميص، باذِّ الهيئة، هَمُّهُ مَقصورٌ على اكتساب المجد"[1]، ويقول أبو دَهْبَلٍ الجُمَحيُّ، مشيرا إلى هذه العلاقة، ومُفْصحا عن بعض ملابساتها[2]:

أَقولُ وَالرَّكْبُ قَد مَالَتْ عَمائمُهُمْ وَقَد سَقى القَومَ كَأسَ النَّشْوَةِ السَّهَرُ

يا لَيتَ أَنّي بِأَثوابـي وَراحِلَتـي عَبدٌ لِأَهلِكِ طُولَ الدَّهـرِ مُؤْتَجَرُ

ويقول ابن الدُّمَيْنَةَ، مُعَدِّدا على صاحبته ما ناله، من ضُروب المَشَقّات، وتجشُّمِ الأسفار، وركوبِ الأخطار[3]:

وَأَنْتِ الَّتي كَلَّفْتِني دَلَجَ السُّرَى وَجُـونُ القَطَا بِالجَلْهَتَـيْنِ جُثُومُ

وأنتِ التي قطَّعتِ قلبي حَزَازَةً وقَرَّفْتِ قَـرْحَ القلب وهْو كَلِيمُ

وبين المرأة باعتبارها موضوعا للنسيب، وبين الشجاعة التي يقوم عليها الفخر أساساً، مناسبةٌ فنية وجمالية، ترجع في أساسها إلى عشق الإنسان العربي بعامة، والشاعر الجاهلي بخاصة، للمرأة وركوبِه أهوالَ الحرب من أجل حمايتها والدفاع عنها، بل وإلى عشق المرأة نفسها، للرجل المحارب، والفارس المِقْدام. وقد أدرك الشعراء هذه العلاقة، فعبّروا عنها بأشكالٍ مختلفة، بَعْضُها داخلي ضمني، على نحوِ ما صاغه الحادرة في هذه العينية، وبعضُها ظاهرٌ صريح، على نحوِ قول عمرو بن كلثوم في المعلقة:

يَقْتَن جِيادَنـا ويَقُلْنَ لَسْـتُمْ بُعُولَتَنـا إذا لم تَمْنعونـا

وقول عنترة في المعلقة أيضا:

إنْ تُغْدِفي دوني القِنَاعَ فإنني طَـبٌّ بأخـذ الفارس المُسْتَلْئِم

ولأمر ما، كان الغزل يمتزج بالفخر، في كثير من النصوص الشعرية القديمة، لدرجة يصعب معها تحديدُ الغرض الشعري، وَفْقَ ما حدده القدماء، ومنه هذه العينية، ولأمر ما، صَنَّفَ أبو تمام بعض أشعار النسيب، ضمن باب الحماسة، كما أوضحنا في غير هذا الموضع[4].

ونحن إذ نتأمّلُ النص من هذا المنظور، فلأن القدماء أنفسهم، نبّهوا على الاختلاف في

1 – شرح المفضليات 1/234.
2 – شرح ديوان الحماسة للمرزوقي 1350 (الحماسية 548).
3 – شرح الحماسة للمرزوقي 1379 (الحماسية 569).
4 – في بلاغة النص الشعري القديم 64.

قسمة الشعر إلى أغراض، فضلا عن النقص والتداخل والخطإ فيها[1]، ولأنَّ "بإمكاننا أن نُعيد النظر، في كثير مما كنا نتصوره مديحا أو فخرا أو رثاء أو غزلا. فهذه الأغراض تُسَطِّحُ فَهْمَنا للشعر الجاهلي، وتُفْقِرُهُ"[2]، وتنأى به عن بُعْدَيْه الإنساني والجمالي، ودَوْرِهما في تأسيس "الوعي الجماعي، بوصفه قيمةَ كلِّ القِيَم، والمَثَلَ الأعلى الذي لا يوجد عند نقطة معينة، ولا في مكان معين، بل في ذات الإنسان، وفي سعيه إلى الكمال الذي يتظاهر، جمالا وسُمُوّاً، من خلال الجمال الشعري"[3].

وتأسيساً على ذلك، فإنَّ ذكر الخمر ومجلسها، ذو صلة وثيقة بالنسيب، لما يستلزمه القولُ فيهما من رِقَّة لفظ، وفَرْط تَعلُّق، وتحقيقِ لذّة. وقد أدرك أبو تمام، وهو ناقد حَصيف، هذه الصلة، مستشعرا أنَّ سمات النسيب في جملتها، لا تختلف كثيرا عن سمات الخمر، فأدرج في حماسته بعض المقطوعات الخمرية في باب النسيب[4]، كما أدركها الشعراء الذين عُنُوا بوصف الخمر خاصة، وفي مقدمتهم أبو الهندي، وأبو نواس، فعبَّروا عنها، مانحين معانيَ النسيب وسماته، إلى الخمرة والشراب، لتقارب الموضوعين، موضوع الرجل والمرأة، وتقارب السياقين، سياق المتعة واللذة[5]. والأمرُ نفسُه بالنسبة إلى تجشُّم الأسفار، ووصفِ الناقة، في علاقتهما بالحماسة والفخر، فبينهما من السِّمات ما يَسمح للشاعر بالجمع بينهما،

---

1 – منهاج البلغاء 337.

2 – جماليات الشعر العربي 313. وانظر حديثنا عن مفهوم الغرض، ضمن كتابنا "في بلاغة النص الشعري القديم 53.

3 – جماليات الشعر العربي 313.

4 – مراعاة لهذه السمات، ولبعدها الجمالي، أدرج أبو تمام في حماسته أبياتا في وصف الخمر والحنين إليها، ضمن باب النسيب. وعَلَّلَ المرزوقي فعْلَ أبي تمام هذا، فقال: "وأدخلَ هذه القطعة في باب النسيب، لرقتها، ودلالتها على اللهو والخسارة" (شرح الحماسة للمرزوقي 3/1270)، وقال في موضع آخر، مُبَرِّرا وجود مثل تلك الأبيات الخمرية في باب النسيب أيضا: "وإنما جاز أن يُودِع البيتين بابَ النسيب، لرقتهما، ولأن المُتَغَلَّل به كان لذة من اللذات" (نفسه 3/1266).

5 – قال أبو الهندي في الشراب، وهو مما يُستحسن له، كما في طبقات ابن المعتز140:

وفارةِ مِسْكٍ من عذار شممتها ... يفوح علينا مسكها وعبيرها
سموتُ إليها بَعدَ ما نام أهلُها ... غُدُوّاً ولم تُلْقِ عنها سُتُورُها
أُقَبِّلُها فوق الفراش كأنها ... صَلايةُ عطّارٍ يفوح زَرِيرُها

وقال أيضا وقد ربط بين المرأة والخمرة (طبقات ابن المعتز 138).

إنما العيش فتاةٌ غادةٌ ... وقُعُودي عاكفا في بيت حان
أشْرَبُ الخمر وأعصي مَن نهى ... عن طِلاب الرّاحِ والبِيضِ الحِسَان

فَنّياً ودلاليّاً، على نحو ما يَسمح له بالجمع بين الخمر والمرأة سواءً بسواء[1]. وأَبْرَزُ تلك السمات الصبرُ على الشدائد والْـمَكاره، وتَحَمُّلُ المَشاقّ والمصاعب، من قِبَل الشاعر والناقة معا، كلٌّ في بابه، طَلَباً لحُسْن الثناء الذي لا يُنال إلا بَعْدَ المشقة والمُكابَدة، ورَعْياً للمعاناة النفسية والاجتماعية التي تَفرضها أعرافُ القبيلة، ويُزَكّيها واقعُ الحال[2]. ثم بين الخمر والماء، في قصيدة الحادرة، مُشاكَلةٌ من جهات، فكلاهما غَضٌّ طريٌّ، هذا من ماء السحاب، وذاك كدم الغزال، وبينهما معاً، وبين الرِّيقِ بما يستدعيه من ذكر الخمر، رِقّةٌ ولَذّةٌ وخسارةٌ ولَهْوٌ.

ثم إنّ ذكر الخمر وتجشُّمَ الأسفار، مما يفخر به الجاهلي، ولا سيما في سياق الذكرى، بما يَحضُرها من روح الشَّجَن، وأسى الفَقْد. وقد أشار التبريزي نفسُه، في شرحه لهذه القصيدة، إلى البُعْد القِيميّ في حديث الحادرة عن الأسفار، فقال مُعَلّقاً على البيت 26 من العينية: "ومعنى البيت أنه يتبجح، بعد ما قدّمه، بأنه يَذُل نفسه في الأسفار، ولا يستعين بغيره فيما يَعْرِضُ له، وإن شَقّ عليه"[3]. وقد كَشَفَ هذا المعنى عَبْدةُ بنُ الطَّبيب، في سياق حديثه عن واقعه المَرير، مُتّخذاً منه مناسبة للتغني بالماضي السعيد، ومستحضرا ما كان يتمتع به من "الرَّوَاح على التِّجَار، واللهو بملذات الخمر"، زمنَ الفُتوّة وأيامَ الصّبا، قال:

إمّا تَرَيْني قد بَلِيتُ وغاضَني ... ما نيلَ من بَصَري ومن أَجْلادي[4]

وعَصَيْتُ أَصحابَ الصَّبابة والصِّبا ... وأَطَعْتُ عاذلتي ولانَ قِيَادي

فلقد أروحُ على التِّجَار مُرَجّلاً ... مَذلاً بمالي لَيِّناً أَجْيادي

ولقد لَهَوْتُ وللشباب لَذَاذةٌ ... بسُلافَةٍ مُزِجَتْ بماءِ غَوادي

من خَمرِ ذي نَطَفٍ أَغَنَّ مُنَطّقٍ ... وافى بها لِدراهِمِ الأَسْجادِ

كما كَشَفَ عنه عَبْدُ يَغُوثَ، وهو شاعر جاهلي، في سياق الفخر كذلك، قال[5]:

وَقَد كُنتُ نَحّارَ الجَزورِ وَمُعْمِلَ الْـ ... مَطِيِّ وأَمضي حيث لاحَيَّ ماضيا

1- يقول التبريزي في شرح المفضليات 1/230، معلقا على البيت 22: "والمعنى أنه يتبجح بأنه رئيس رُفْقَتِه، وأنه المعتمد في حالتي الخفض والدَّعَة".

2- يقول التبريزي في شرح المفضليات 1/239، معلقا على البيت 29: "ودَلّ بهذا على أن راحلته في مَبْرَكِها، على مثل حاله في مَضْجَعه".

3- شرح المفضليات 1/238.

4- المفضليات بتحقيق شاكر وهارون ص 218 (المفضلية 44).

5- المفضليات بتحقيق شاكر وهارون ص 158 (المفضلية 30).

وَأَنحَـرُ لِلشَّـرْبِ الكِرامِ مَطِيَّتـي وَأَصدَعُ بَـينَ القَيْنَتَيْنِ رِدائيا
وَعادِيَـةٍ سَوْمَ الجَرادِ وَزَعْتُهـــا بِكَفِّي وَقَد أَنْحَوْا إِلَيَّ العَواليا

ووصفُ الناقة في الشعر القديم، وهو ذو صلة وُثْقى بالرحلة، "مَذهبٌ قَوليٌّ نموذجي"، على حدّ تعبير عبد الله الطيب[1]، بغض النظر عن موقعه من القصيدة، وعن الحيّز الذي يَشْغَله فيها. غير أنه لمّا كان يرتبط بالنسيب ارتباطَ السبب بالمسبَّب، وكان محلّ النسيب التقديمَ، فقد كان هذا الوصف يَرِدُ في الغالب، إثْرَ النسيب مباشرة. على أن وروده في آخر القصيدة، كما هو الشأن في قصيدتنا هذه، ليس من باب الغريب، في الشعر الجاهلي، ولا الإسلامي، فهناك جملةُ قصائدَ، تنتمي إلى العهدين، تمّ فيها الفصل بين النسيب والفخر، بوصف الناقة والرحلة، فجاءت بذلك مخالفةً للنمط الشائع الذي حدّده ابنُ قُتيبة، انطلاقا من غرض المديح وغير غرض المديح[2]. وما من شك في أن بناء القصيدة، وَفْقَ هذا النمط، يَتّخذ بُعْداً بلاغيا، يقتضيه موضوعُ القصيدة وغرضُها، ويُسَوّغه سائرُ العناصر التي تَمّ استدعاؤها لبناء النص وتشكيله، على هذا النحو أو ذاك.

وإنما خَتَم الحادرةُ، فيما نرى، قصيدته بالرحلة ووصف الناقة، استناداً إلى أحد أنماط القصيدة العربية القديمة، على نحو ما أشرنا، وإلى الواقع الجاهلي الذي جعل الشاعر ينظر إلى المرأة باعتبارها "أهلاً وسَكناً"، مع ما قد يكون في تلك النظرة، من "معاني الوجد وأسى الحب ولوعة الجنس"، وإلى الناقة باعتبارها وسيلةً واصلةً، لتحقيق الأمل، أملِ اللقاء، في حال الوصال، على نحوٍ ما يُفْصِح عنه شاعرُهم:

ألا فَرَعـــى اللهُ الرواحـلَ إنّما مطايا قلوبِ العاشقين الرَّواحِلُ[3]
على أنهن الواصلاتُ عُرَى النَّوى إذا ما نأى بالآلفيـــن التَّواصُلُ

أو وسيلةً صارمةً، للتخفيف من الألم، ألمِ الهجر، في حال الصَّرْم، على نحو ما يُفصح عنه شاعرُهم كذلك:

1 – المرشد 3/1138.
2 – انظر المفضليات بتحقيق شاكر وهارون: المفضلية رقم 44 ، والمفضلية رقم 50، وديوان كعب بن زهير 41، والفرزدق 1/12، والأخطل 1/93، وذي الرمة 2/1300، والهاشميات الثلاث الأولى في شرح الهاشميات. فجميع هذه القصائد، خُتمت بوصف الناقة، وهي ظاهرة فنية تستحق الدراسة.
3– الكامل 2/852.

ولقد قطَعتُ الوَصْلَ يومَ خِلاجِـهِ وأخو الصَّريمة في الأمور المُزْمِعُ[1]
بِمُجِدَّةٍ عَنْسٍ كـــأنّ سَراتَهـــا فَـــدَنٌ تُطيفُ به النَّبيطُ مُرَفَّعُ

وإلى توكيد مكانته، لدى سمية، ولدى القبيلة، في الموقفين: موقف الملذات التي يحياها مع نَداماه في مجالس الشراب، وموقف الإقدام الذي يدعوه إلى الاحتفاظ بجَلَده وخُشونته، وكأنه قد خشي أن يُظن من موقفه الأول، أنه ممن تَعْميهم الملذاتُ الشخصية عن بؤس الفقراء والمحرومين، فصحَّحَ هذا الموقف بذاك[2].

وبَيْتُ الْخَتْمِ الذي بدا غريبا، لدي بعض الدارسين[3]، و لم يَرْوِهِ بعضُ الأقدمين[4]، وهو قوله:

ومَتَـــــاعِ ذِعْلِيَّةٍ تَخُبُّ بِراكِبٍ ماضٍ بِشَـــيعته وغَيْرِ مُشَيَّعِ

مُتَمكِّنٌ من القصيدة، ذو صلة بمطلعها، وذو صلة بالبيت السابق عليه. ثم هو وصفٌ لحال نفسه وحال ناقته، إذ قوله في المطلع: "بكرت سمية بكرة فتمتع"، شبيه بمقاله هنا: "ومتاعِ ذعلية". وكونُه مع رفقته الشُّعْث في شيعة، إنما كان قبلُ، فأما إذ مضت سمية، فهو متروك وحده، ليَمضي وحده، ليس له من زادٍ سوى الذكرى، ذكرى المتاع والتمتع، ولعل في ذلك كفاية، كيف وقد رحل غيره بغير متاع؟ وليس لنا منه، بعد هذه الرحلة معه، إلا الاحتفاظُ بتلك المشاعر النبيلة، والقِيَم الخَيِّرة، في سُموقها النابع من الحب الجميل، حبِّ المرأة، وحب الطبيعة، وحب الوطن.

بحثاً عن السِّمات

أ – سمات النسيب وخصوصية التشكيل

يقوم النسيب، على شدة الوجد، وفَرْطِ الصَّبابة، وكثرة التّحسُّر، وقَلَقِ الشوق، ولَوْعة

1– البيتان من قصيدة لمتمم بن نويرة (المفضليات ص 49، المفضلية 9).

2– الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه 1/ 288.

3– قال النويهي في كتابه الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه 1/293: "وهذا البيت، لم نستطع أن نجد له موضعا مناسبا، بين أبيات القصيدة، كما وصلت إلينا. ويُخَيّل إلي أنه ينتمي إلى مجموعة من الأبيات، سقطت من القصيدة، في مرحلة من المراحل المتعددة التي مرت بين نظم الشاعر لها، وتداولها بين مختلف طبقات الرواة، إلى أن تم تدوينها".

4– لم يروه أبو عكرمة، و لم يفسره، فهو من زيادة الأنباري، من غير رواية أبي عكرمة، و لم يروه الأصمعي، ولا ابن الأعرابي، كما لم يَرِدْ تبعا لذلك في الديوان، ولا في الاختيارين.